والسلوك ، وهو سبحانه الأعلم بالسرائر وما تخفى الضمائر ، وأيضا فالأنبياء قد علموا الذين آمنوا بالمنهج وكانوا معاصرين لهم ، ولكن ليس لهم علم بمن كفر أو آمن بعد أزمنتهم ، وإجابة الرسل هي قمة الأدب مع الله ، ذلك لأن كلا منهم قد علم أن معرفة الله شاملة وعلمه قد وسع كل شيء ، ولذلك جاء قولهم : « إنك أنت علام الغيوب » .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي
عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ
تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ
تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا
فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ
بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

لماذا إذن يجمع الله كل الرسل ويسألهم سؤالاً على الإجمال ، ثم لماذا يأتى بعيسى ابن مريم ليسأله سؤالاً خاصاً عن حادثة مخصوصة ؟

أراد الحق بذلك أن يعلمنا أنه سيسأل الرسل سؤالاً يوضح لنا أدب الرسل مع الحق ، ويبين لنا تقريع الحق لمن كفروا بالمنهج ، أما سؤاله سبحانه وتعالى لعيسى ابن مريم ، ذلك السؤال الخاص عن الحادثة المخصوصة ، فمرد ذلك إلى أن بعض الذين آمنوا به قد وضعوه في موضع الألوهية أو بنوّة الألوهية ، وفي ذلك تعدٍ على التنزيه المطلق للحق سبحانه وتعالى . ونعلم أن قصارى ما صنعت الأمم السابقة أن بعضهم كفر بالرسل ، وبعضهم كذب الرسل ، لكن لم يدع أحد من هذه الأمم أن الرسول الذي جاء هو إله ، لم يقل ذلك أحد وإن كان بعض فرق اليهود قد قالوا : إن عزيرا هو ابن الله وهذه الفرقة قد انقرضت ولم يبق يهودي يقول ذلك ، وسبحانه قد جعل الشرك به قمة الكفر الذي لا غفران له .

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

فكأن عيسى عليه السلام سيواجه السؤال ضمن الرسل ، ثم يسأله الحق سؤالاً خاصاً به . ويقدم الحق السؤال لعيسى ابن مريم بعد أن ذكّره بعدد من النعم التي أنعم بها سبحانه وتعالى عليه وعلى أمه مريم عليه وعليها السلام :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) ﴾

(سورة المائدة)

ونجد هنا أن الحق سبحانه وتعالى يعدد بعضاً من نعمه على سيدنا عيسى وهي : التأييد بروح القدس وهو سيدنا جبريل عليه السلام ، والكلام في المهد بما يبرىء أم عيسى السيدة مريم عليها السلام مما ألصقوه بها من اتهامات ، وتعليم الحق له

الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . وأنه سبحانه قد أقدره على أن يصنع من الطين كصورة الطير بإذن منه سبحانه وأن ينفخ فيه فيصير طيراً بإذنه سبحانه ، وكذلك أقدره الحق سبحانه أن يبرىء الأعمى من العمى . وأن يعيد إلى الأبرص لون جلده الطبيعي ويشفيه ، وأجرى على يديه تجربة إعادة الموتى إلى الحياة بإذن منه سبحانه ، وكذلك منع الحق عن عيسى ابن مريم كيد اليهود وكف أيدى الذين أرادوا صلبه وقتله على الرغم من أنه جاء لهم بالمعجزات السابقة حتى يؤمنوا فآمن بعض منهم وكفر الذى قال : عن تلك المعجزات : إنها مجرد سحر .

وعندما نتأمل بالخواطر أمراً واحداً من تلك الأمور نجد أن قدرة الحق سبحانه وتعالى لها تمام الوضوح الظاهر ، فمجرد كلام عيسى فى المهد هو معجزة ، والمهد ـ كما نعلم ـ هو الفراش المريح للطفل يعده له الأهل ساعة أن يولد ؛ لأن الطفل لا قدرة له على أن يتزحزح من مكانه إن كان هناك شيء بارز فى مهده يضايقه ؛ لأن الطفل يملك الحس ولكن لا قدرة له على مدافعة ما يتطلبه الحس .

إن الطفل المولود لا يستطيع مثلا أن يمد يده ليزيل الحصوة الناتئة من الأرض تحت المهد لذا يمهدون فراشه ويوطئونه له . إنه مجرد روح فى جسد صغير لا حول ولا قوة له إلا استبقاء الحياة بالتعلق بثدى الأم ، فإن تكلم طفل فى المهد ، فمعنى ذلك أنه امتلك إرادة يسيطر بها على كل جسمه إلى الدرجة التى يمكنه أن ينطق بها الكلام ، وهذا لا يحدث أبداً . ونجد الأهل يمهدون الفراش للطفل ، لأنهم يعلمون أن أقصى تعبير عن الانفعال هو أن يبكى . وإذا ما تمكنت حشرة صغيرة من لدغ الطفل كالبرغوث أو البعوضة فالطفل لا يملك إلا البكاء .

وقد تكلم عيسى فى المهد بعد أن أقدره الحق على ذلك . ثم جاء الحق بحقيقة هى المقابل للمهد وهى الكلام فى الكهولة . فإن كان قد تكلم فى المهد إعجازاً ليبرىء أمه البتول فإنه سوف يتكلم كهلاً مبلغاً عن الله . ولم يتكلم عيسى ابن مريم وهو فى المهد إلا بما قاله الحق فى القرآن الكريم :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة مريم)

قال عيسى عليه السلام فى المهد هذه الكلمات ليبرىء أمه الصدِّيقة ، ذلك أنهم اتهموها فى أعز شىء لديها ، ولذلك لم يكن ليجدى أى كلام منها . وإنقاذاً لها أبلغها الحق عن طريق جبريل أو عيسى عليهما السلام أن تقول :

﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة مريم)

وسبحانه وتعالى يعلم أن ميلاد عيسى من أم لم يمسسها رجل هو خرق لناموس الكون فى الحمل ، وكذلك أراد الحق أن يكون هناك خرق للناموس فى الكلام فيتكلم عيسى فى المهد بكلام معجز له معنى . وعلمه الحق الكتاب : « وإذ علمتك الكتاب » أى علمه الله الكتابة ، وعلمه التوراة ، وأنزل عليه الإنجيل ، وألهمه الحكمة وهى الكلام المحكم الصواب بإلهامات الله ومقابلها فى الإسلام أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

وجاءت دقة الأداء القرآنى لتمنع أى تصور لتدخل من ذات عيسى فيما أجراه الله على يديه وذلك منعاً للفتنة فقال الحق : « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير » إذن فعيسى لا يخلق الطير ولكن يصنع من الطين مثل هيئة الطير ، فالحق وحده هو الذى يخلق الطير ؛ فلأنه الإله فهو الذى يخلق خلقاً عاماً ، أما البشر فبإمكانهم أن يخلقوا أشياء ويشكلوها كمثل المخلوقات ، لكنها ليست مخلوقات .

إننا نرى ذلك فى التماثيل التى ينحتها المثَّال من الصخر أو يشكلها من الطين كهيئة الجمل أو العصفور ، لكنه لا يملك أن ينفخ فيه الروح ، وقد يخترع الإنسان أشياء مثل الكوب من الرمل المصهور المنقى ، لكننا لم نسمع عن خلق كوب ذكر وكوب أنثى ليتوالد من الإثنين نسل من الأكواب !

إننا نرى دائماً أن خلق الإنسان لشىء إنما يظل معقوداً على حاله فلا ينسل ولا ينمو ولا يحس ، والخالق الأعظم يخلق من عدم ، أما أنت أيها الإنسان فتصنع أشياء مما

وهبك الله من أشياء موجودة مطمورة فى الأرض أو ظاهرة . ولم يضن سبحانه عليك بل أطلق عليك بأنك خلقت ، ولكن لتنتبه إلى أنه سبحانه وتعالى أحسن الخالقين .

إذن فعيسى صَنَع من الطين مثل هيئة الطير ، وكان ذلك بإذن من الله ، ونفخ فيه فكان طيرا بإذن الله.والفارق بين قدرة الحادث وهو العبد ، وقدرة الباقى القدير وهو الرب أمران . الأول : أن الحق سبحانه وتعالى حينما يقدر أمرا فهو يستطيعه بطلاقة قدرته أن يُقدر بعضًا من خلقه على أن يفعل الشيء ، لكن العبد لا يستطيع أن يقدر عبداً آخر أن يصنع شيئاً مثل الذى يصنعه .

والمثال على ذلك : نجد الطفل إن أراد أن يحمل كرسياً فهو لا يقدر ، ويأتى شاب قوى ليحملَ الكرسى للطفل ، هذا الشاب إنما يعدى أثر قوته إلى الطفل ولم يُعَدِّ لَهُ قوته ولم ينقلها له ، ويبقى الطفل ضعيفا كما هو . أما الحق سبحانه وتعالى فهو يُقْدِرُ من يريد على ما يريد . فبعظمته سبحانه يعدى من قدرته إلى من لا يقدر ليَقْدِر . والعظمة إذن فيما فعل المسيح هى أن الحق سبحانه أراد له أن يحيى فنفخ فى الطين فصار طيراً بإذن الله . وقد سبق سيدنا إبراهيم سيدنا عيسى فى ذلك عندما سأل الله :

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

فسأله الله :

﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

فقال إبراهيم : « بلى » أى أنه آمن ، وأضاف :

﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

والكلام هنا جهته منفكة ، فإبراهيم قد آمن ، والإيمان اطمئنان القلب إلى عقيدة ما ، وما جرى زاد إبراهيم تيقناً . ولم يسأل إبراهيم ربه : أتحيى الموتى ولكن إبراهيم أقر أولاً بقدرة الحق على الإحياء وتساءل عن الكيفية . وطلب الكيفية لا شأن له

بالإيمان ؛ لأن الكيفية تتطلب تجربة . فأمره الحق أن يأتى بأربعة من الطير وضمها إليه ليتعرف عليها جيداً . وأن يقطعها إبراهيم بيديه ويضع كل قطعة على جبل وبناديها ، فتأتى القطع بنداء إبراهيم وقد صارت هى الطير نَفْسَهَا التى كانت من قبل .

وهكذا أراد الله لعيسى عليه السلام أن يصنع من الطين مثل هيئة الطير بإذن الله وأن ينفخ فيها بإذن الله فيصير الطين طيراً . وأراد الله لعيسى أن يبرىء الأكمه أى الذى ولد أعمى . وقد يقول قائل : إن فى عصرنا يتم ترقيع القرنية ويمكن أن يَرَى ويبصر بعض من الذين ولدوا بلا قدرة على الإبصار . ونقول : إن ما يحدث فى عصرنا هو سبق وتقدم علم بناء على تجارب ، أما ما حدث مع عيسى فكان خرقاً للناموس وأراده الله معجزة . وكذلك أراد الله أن يجرى على عيسى شفاء الأبرص أى الذى أصابه بياض كالرقع فى بشرته . وكذلك كف بنى إسرائيل عنه عندما أرادوا إيذاءه وقتله . وعندما رأوا كل ذلك آمن بعضهم ، وكفر البعض واتهموا عيسى عليه السلام بأنه ساحر . وكان ذلك منهم كذبا وافتراء عليه ؛ لأنه نبى مرسل بمعجزات واضحة .

وفى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق سبحانه وتعالى يسرد نعمه على سيدنا عيسى عليه السلام . وسرد النعمة على الرسول ليس المقصود منه تنبيه الرسول إلى النعمة ، فالرسول يعلم النعم جيداً لأنها جرت عليه ، ولكنه تقريع لمن رأى هذه الأحداث والنعم ولم يلتزم الإيمان بالله بعدها ، وقد أجرى سبحانه كل هذه النعم على عيسى عليه السلام وأيده الله بما يقوى ويزكى رسالته إلى قومه . فكانت نعمة أولاً عليه ، لأنه مصطفى ، مختار ، مؤيد . ونلحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين : قسم يقنع أصحاب العقول والألباب والفكر والمواجيد النفسية . وقسم يقنع القوم الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله فى غيب الله . والقسم الأول الذى يقنع أصحاب العقول والألباب هو تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .

والقسم الثانى الذى يقنع الماديين هو الأمور المادية الحسية التى يتعرف من يراها على أنها لا يمكن أن تجرى على يد بشر ، كأن يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه

فيكون طيراً ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص . وهذه الآيات خرق للناموس المادى ، ولذلك يتبع الحق كل واحدة منها بذكر كلمة : « بإذنى » أى أن هذه المعجزات لم تكن لتحدث لو لم يأذن بها الله . ولم يذكر الحق ذلك بالنسبة للآيات الأخرى لأنها أمر ظاهر ومعروف ، حتى يكون الأمر واضحاً أمام كل إنسان ممن يحبون عيسى ويرتفعون به إلى مقام أعلى من مقام النبوة المؤيدة ممن أرسله . وحتى لا يخدع قوم عيسى فى هذه الآيات ويظنوها مزية مطلقة له ، ولكنها مجرد آيات معجزات لإثبات صدق الرسالة عن الله .

إن عيسى عليه السلام حينما أخذ كل قطعة من الطين ليصور منها طيراً وينفخ فيها فتكون طيراً لم يفعل ذلك بقدرته وإرادته ، وإنما حدث ذلك بإذن من الله ، ولم يحترف عيسى تلك المسألة ، وكذلك كان إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وكل ذلك خرق لناموس المادة ، لذلك كرر الحق القول بأن هذا الخرق كان بإذن منه سبحانه حتى نعرف أن عيسى لم يأخذ من قدرة الله طلاقة له بل انحصر الأمر فى هذه المسائل التى أذن الله فيها فقط .

إننا نجد أن كل خرق لناموس الغيب عند الأنبياء أو الأولياء ، أو من يعطيهم الله هذه الإشراقية ، هذا الخرق إنما هو لتكريم النبى أو الولى أو الذى تشرق عليه فيوضات الله ، وعلينا أن نعرف أن الله لم يعط إنساناً واحداً القدرة على العلم بالغيب مطلقاً ، إنما يطلع الحق بعضاً من خلقه بهبة من تجلياته على شىء جزئى . فالحق سبحانه وتعالى هو مالك الغيب :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

ولم نر إنساناً علاماً للغيب ولكن يُعْلِمُهُ الله بغيب من بعض غيبه ، حتى نعلم أنها أحداث وقتية يتجلى الله فيها بفضله ، ليثبت حالة من الحالات ، ثم يظل الإنسان مع الناموس العام فى كون الله . والناموس الكونى هو الأمور والقوانين التى أطلقها الله فى الكون لتعمل لخدمة المؤمن والكافر والطائع والعاصى . ومثال ذلك شروق الشمس وغروبها ، وحركة السحاب حاملاً المطر ، ووجود الأرض بعناصرها القابلة للزراعة . وخرق الناموس يكون بإذن من الله للرسل والأنبياء والأولياء ؛ إننا نجد

كل ذلك آيات من الحق لإثبات صدق الرسول فى البلاغ عنه ، وهذا الإثبات مشروط بشروط : أولها أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى فى هذا المجال الذى تحدث فيه تلك المعجزة ، والمثال على ذلك : خرق الحق سبحانه لناموس العصا وهى فرع من شجرة وجعل موسى عليه السلام يلقيها فإذا هى حية تسعى . وما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحراً ولكنه نقلها من جنس إلى جنس فى عصر نبغ فيه الناس فى السحر ، ونعلم أن موسى أنس إلى ربه فقال وأطنب وأسهب وأطال :

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

وعرف موسى من بعد مقام الأنس والانجذاب مقامَ الخشية فأوجز قائلاً :

﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

لقد عرف موسى عليه السلام أنه يخاطب مولاه فأطال الأنس ، به وعرف أيضاً مراعاة المقامات وانتقل من الانجذاب والأنس إلى مقام الرهبة فقال : (ولى فيها مآرب أخرى) .

وجاء الأمر بإلقاء العصا :

﴿ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾

(من الآية ١٩ سورة طه)

وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذى يعلمه موسى عليه السلام فلم تعد للتوكؤ والهش على الغنم ، ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حيّة :

﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ ﴾

(سورة طه)

ولذلك كان لا بد أن تُدهش المسألةُ موسى عليه السلام ، لذلك أوجس خيفة .

ولكن موسى عندما عرف سرّ عصاه لم يوجس خيفة بل تحدى السحرة الذين جاء بهم فرعون فى يوم الزينة ، وعرف موسى أنه ليس بساحر مثلهم ولكن الله أتاه معجزة

بتبهر حتى السحرة ، فالسحرة يعلمون أن عملهم تخييل وليس تغييراً للأشياء ، أما الحق فهو يغير الأشياء نفسها . لقد جاء السحرة بناء على أمر فرعون إلى يوم الزينة ، ويعلمنا القرآن بلمحات جانبية أن نظام السخرة كان موجوداً ، ولذلك طالب السحرة بأجرهم إن هم غلبوا موسى :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة الأعراف)

وعلى الرغم من اختلاف مواهب هؤلاء السحرة ورقى كل منهم فى فرع من فروع السحر ، إلا أنهم جميعاً سجدوا للحقيقة عندما ألقى موسى عصاه وقالوا :

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وهكذا عرفوا أن ما فعله موسى ليس قدرة بشرية ولكنه قدرة فوق قدرة البشر . إنها المعجزة التى يجريها الله على يد الرسل لإثبات صدقهم فى إدعائهم أنهم رسل من الله . وكذلك نبغ قوم عيسى عليه السلام فى الطب . ولم يجرؤ أحدهم على أن يشفى بكلمة واحدة الأكمه والأبرص أو أن يخرج الميت من موته إلى الحياة . وعلى الرغم من تقدمهم فى الطب لم يستطع أحدهم أن يفعل ذلك . والحق سبحانه يسهل المعجزات على رسله ، والمثال فى الإسلام هو الإسراء برسولنا ونبينا صلى الله عليه وسلم ، وحَدَثَ الإسراء فى لمح البصر ، ونحن فى زماننا نرى التقدم الآلى والفنى قد اخترع الصواريخ التى يمكن أن تختصر الوقت لمثل الرحلة من مكة إلى القدس ولكنها تمت بوساطة آلة تعمل وبأجهزة أعدت بنظام دقيق بعد تجارب مضنية ، ولكن الحق عندما أراد لم يكن الأمر سوى كلمة منه تصير معجزة فى التو واللحظة . ولنحفظ ذلك جيداً : إن المعجزة خرق اقتدار لا سبق ابتكار أى أنها خرق لنواميس الكون حادث من اقتدار المقتدر - سبحانه - ولم يحدث ذلك من ابتكار واختراع واكتشاف مكتشف .

ويُسلِّى سبحانه عيسى عليه السلام بذكر هذه البينات ، لكنَّ الكافرين من قوم عيسى عليه السلام قالوا إنها سحر : « فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » . ونعلم أن الحق خلق الخلق وجعل الإيمان أمراً فطرياً فيهم ، ثم تأتى الغفلة فتبهت جزئية من جزئيات الإيمان ، وتتلوها غفلة أخرى فتبهت جزئية أخرى ، وتأتى غفلة ثالثة فتصير إلى الران وهو ما يغطى القلب فلا تنفذ إليه الهداية ، وذلك بسبب

ما كسبوا وفعلوا من الذنوب : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

ولنستمع إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى رواه حذيفة :

« حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوَكْت (أى الأثر اليسير من الشىء) ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المَجْل (أى أثر العمل فى الكف) كَجَمْرٍ دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنْتَبِراً (أى متورّماً) وليس فيه شىء ، ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله ، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن فى بنى فلان رجلاً أميناً حتى يقال للرجل ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ولقد أتى علىّ زمان وما أبالى أيّكم بايعت ، لئن كان مسلماً ليردنّه علىّ دينه ، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنّه على ساعيه ، وأمّا اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً »[1] .

وها هوذا الحديث الثانى الذى حدثنا به حذيفة عن رفع الأمانة والفتنة . قال حذيفة :

« كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه . فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل فى أهله وجاره . قالوا : أجل . قال : تلك تكفِّرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع النبى صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن التى تموج موج البحر ؟ قال حذيفة : فأسكت القوم ، فقلت : أنا . قال : أنت لله أبوك . قال حذيفة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأى قلب أشربها نُكِت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل

(١) رواه البخارى فى الرقاق والفتن ، ومسلم فى الإيمان ، والترمذى فى الفتن وابن ماجه فى الفتن ، وأحمد .

الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرْباداً كالكوز مُجخِّياً ـ أي مقلوباً ـ لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » .

قال حذيفة : وحدثت أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر .

قال عمر : « أكسْراً لا أبا لك ، فلو أنه فُتح لعله كان يُعاد »[1] .

هكذا كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة وضياع المناعة الإيمانية من النفس البشرية . وأراد سبحانه للمناعة الإيمانية أن تبقى في عباده ، لذلك تدخل بالرسل حتى تتكون المناعة ويكبح المجتمع جماح كل فرد . تحدثه نفسه بفتنة .

وعندما كان يتم الفساد في الأرض . نجد الحق يرسل الرسول ليعيد البريق إلى النفس اللوامة ، ويحيى في المجتمع القدرة على أن يتناسق السلوك فيه على ضوء منهج الله . ولذلك نجد أن المقاومة التي تحدث للرسل إنما تحدث من الذين يستمتعون بالفساد وبآثار الفساد . وحين يأتي منهج الهداية فهو يأخذ بأيدي المظلومين ويغضب منه الظالمون الأقوياء الجبابرة ، ولذلك يهاجمون الرسل والمنهج القادم من الله ؛ لأن هذا المنهج سيقطع عليهم سبل الفساد الذي يدر عليهم عائداً هو في نظرهم كبير .

لقد رأينا صناديد قريش وقد تصدوا للدعوة ، فمحمد صلى الله عليه وسلم جاء بالمساواة بين كل البشر . لقد كانوا يعرفون أن مجرد النطق بـ« لا إله إلا الله محمد رسول الله » يعني فقدانهم لسلطان إرهاب الناس والقبائل . ولو كانت المسألة مجرد كلمة تقال ، ويبقى الأمر على ما كان عليه لقالوها ، ولكنها كانت كلمة تغير من الأمر سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، ولا يبقى من جبروت لأحد ، فكل الناس سواسية . لذلك تصدى صناديد قريش لدعوة الإسلام . وهكذا نجد أن كل رسول يأتي يبرز له من يعاديه من أصحاب الفساد والجبابرة في الأرض ، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) رواه مسلم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ (١١٢) ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

والمثال على ذلك هو إرادة الحق فى أن يجعل صيحة الإيمان فى الجاهلية تأتى أولاً إلى أذن سادة العرب جميعاً وهم قريش الذين لا يجرؤ أحد على التعرض لهم، لكن النصر لا يأتى لمحمد وهو فى مكة حيث كانت مقام السيادة ؛ لأن النصر لو حدث فى أول الدعوة ومحمد صلى الله عليه وسلم يحيا بين قومه فى مكة لقال قائل : لقد حدث النصر من قوم ألفوا السيادة وأرادوا أن يسودوا العالم كله لا الجزيرة العربية وحدها ، وأن قريشاً قد ساندت محمداً لاستبقاء هذه السيادة وبسطها على غيرهم، ولكنه - سبحانه - جعل مقام النصر ينبع من المدينة المنورة .

إنّ الصرخة أولاً جاءت فى أذن السادة ثم التف حولها المستضعفون فى الأرض الذين لايستطيعون حماية أنفسهم، ثم هاجروا وقوّاهم الله من بعد ذلك على الأقوياء.

إننا نجد كل داع إلى الله يأتى إنما يريد استبقاء خير النبوات حتى لا يأتى الران على القلوب، وإن استبقاء هذا الخير يغضب منه الجبابرة والمنحرفون الذين يريدون السيادة على العالم بفكرهم . والداعية إلى الله الذى لا تجد له عدواً يصيبه بالسوء حظه من ميراث النبوة ضعيف، والداعية الذى له أعداء له من ميراث النبوة الشىء الكثير .

والكافرون بعيسى عليه السلام عندما رأوا قوة الآيات التى جاء بها عيسى عليه السلام . قالوا : « إنّ هذا إلا سحر مبين » وهذا يعنى أن معجزات عيسى عليه السلام قد أحفظتهم وأغضبتهم وأحنقتهم وملأت مشاعرهم بالخيبة . إنه قول من قوم يكرهون منهج الحق، وعلى ذلك يكون كفر الكافر نعمةً يدعم بها الحق الداعى إليه ؛ لأن ذلك يحفزه ويدفعه إلى الدفاع عنْ دين الله، فمقاومة الإيمان تظهر قوة المؤمن بالعقيدة التى يؤمن بها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

وكلمة الحَوارِىّ مأخوذة من المحسات . فالحُوَّارَى تطلق على الدقيق النقى الخالص . وأطلقت على كل شىء نقى بصفاء خالص ، و« الحَوارِى » هنا تعنى المخلص والمحب لمنهج الخير . وسبحانه يقول : « وإذ أوحيت » والوحى بمعناه العام هو الإعلام بخفاء ؛ أى أن الحق ألهمهم أن يؤمنوا برسالة عيسى المبلغ عن الله ، أى أعلمهم بخواطر القلب التى أعلم بها أمَّ موسى أن تلقى ابنها فى اليم ليلقيه اليم إلى الساحل ، وهو غير الوحى للرسول ، فالوحى إلى الرسول هو الوحى الشرعى بواسطة رسول مبلغ عن الله هو سيدنا جبريل عليه السلام ، أما وحى الله إلى ام موسى أو إلى الحواريين فهو استقرارخاطر إيمانى يلتفت بعده الموحَى إليه ليجد الواقع يؤيد ذلك . وعندما لا يصادم إلهامُ القلبِ أمرًا واقعا ولا يجد الإلهام ما يصادمه فى نفس الإنسان ، فهذا لون من الوحى ، أى هو إعلام بخفاء ، كأن يتوقع الرجل مَقْدَم صديق من سفر ، أو لوناً من الطعام يشتهيه فيجده على المائدة .

إذن فالإلهام وارد من الله لخلق الله مادام لا يصادم شيئا فى النفس أو فى الواقع ؛ لأن الإلهام الذى يقابل صداماً ليس من الله . فالشياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .

إن الله أوحى للحواريين أن يؤمنوا به وبرسالة عيسى عليه السلام . وبمجرد مجىء عيسى وسماعهم أنه رسول من الله أعلنوا الإيمان به وصاروا من خلصائه . وساعة نرى : « إذ » فلنفهم أن معناها تذكر وقت الحدث الذى قال فيه الحواريون : نحن آمنا بعيسى نبياً من عند الله وأشهدوه أنهم مسلمون .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

كأن عيسى قال لهم : عليكم بتقوى الله فلا تسألوه هذه الآية ، لأنكم مادمتم قد أعلنتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على الله آية لإثبات صدق رسوله ، وحسبكم ما أعطاه الله لى من آيات لصدق رسالتى . وعليكم أن تلزموا أنفسكم بالمنهج الذى أعلنتم أنكم مؤمنون به .

وقد توقف العلماء عند قولهم : « هل يستطيع ربك » وتساءل العلماء : كيف كان هذا القول ، وخصوصاً أن معناه الظاهرى : أيقدر ربك ؟ وكيف للحواريين أن يقولوا ذلك بالرغم من أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون ؟ وقال العلماء أيضاً : إن من يتكلم فى اللغة عليه أن يكون متبصراً باشتقاقات الألفاظ واستعمالات الألفاظ وسمات الألفاظ ، وكلمة « يستطيع » بمعنى يطيع كما قالوا : استجاب بمعنى أجاب ، وكأن معنى سؤالهم : أيستجيب الله وينزل علينا مائدة من السماء ؟ و« استطاع » تقابل : « استجاب » وسبحانه وتعالى هو القادر على كل شىء ، وهو الذى يطيعه كل شىء ، وهو الذى يرضخ لحكمه كل شىء ، والحق لا يطلب ، إنما يأمر مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

الله سبحانه وتعالى لا يقول لشىء كن إلا ويعلم أنه يطيع ، ولا يأمره الحق أن يطيع إلا ويكون استعداده الانفعالى أنه حين يسمع قول الله : « كن » فلازم أن يكون ، والمثال على هذا هو قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الانشقاق)

إنها لن تنتظر إلا سماع الأمر فقط . وساعة تسمع الأمر فهى تنفعل ، ومعنى تنفعل أى تطيع . وكل الكون مطيع لخالقه سبحانه وتعالى . أو يكون معنى هل يستطيع : هل يفعل . وذلك من باب التعبير عن المسبب بالسبب ؛ إذ الاستطاعة من أسباب إيجاد الفعل . وقيل المراد : هل تستطيع سؤال ربك من غير صارف ولا مانع يمنعك عن سؤاله ؟ فقد قرأ الكسائى وغيره هل تستطيع ربَّك بنصب كلمة (ربك) وأصلها هل تستطيع سؤال ربك ، فحذف المضاف (سؤال) وأقيم المضاف إليه وهو كلمة رب مقامه فنصب . وقال الزمخشرى : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكى ادعاءهم . وقولهم : (هل يستطيع) كلام لا يتأتى مثله من مؤمنين معظمين لربهم .

وقال الحواريون ما جاء به القرآن الكريم :

﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

وكأنهم أرادوا أن يتشبهوا بسيدنا إبراهيم خليل الرحمن عندما سأل الله عن كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه . لقد آمنوا بعلم اليقين ، ويريدون الآن الانتقال إلى عين اليقين ؛ لذلك سألوا عن المائدة التى صارت بعد ذلك حقيقة واضحة .

وهكذا نعرف أن هناك فارقا بين أن يؤمن الإنسان بذاته ، وأن يشهد بالإيمان عند غيره . فالذى يشهد بالإيمان عند غيره يحتاج إلى يقين أعمق .

ويخبرنا الحق بما قاله عيسى عليه السلام - وهو يختلف عن قولهم فى هذه المائدة - قال سبحانه :

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) ﴾

وقوله الحق : « مائدة من السماء » إنما يعنى أن هناك لله موائد منصوبة فى الأرض . والكون كله مائدة فيها من الخير الكثير إن استطاع الإنسان أن يكد ويكدح .

والإنسان منا عندما يكد ويكدح ويستخرج من الأرض الزرع ويرعى الحيوانات فإنه يأتى إلى زوجه بمخزون قد يكفيهم كأسرة لمدة عام من دقيق وأرز وعسل وسكر وزيت ، فتأخذ الزوجة طيراً فتذبحه وتطهو معه الخبز والخضراوات .

إذن فالكون كله مائدة الله المنصوبة والتى يأخذ منها كل إنسان على قدر عمله . وكلمة « مائدة » لا تطلق إلا على الخوان وعليه طعام . أما إن كانت بغير طعام فنطلق عليها « خواناً » ؛ لأن « المائدة » مأخوذة من مادة « الميم والألف والدال » والمائدة تميد أى تضطرب من كثرة ما عليها من أشياء . أو هى تعطى مما عليها من أشياء . فالمائد هو المُعْطى .

وقول عيسى عليه السلام يمتلىء بكل المعانى القيمة ، فهو يطلب أن تكون المائدة مناسبة لعيد يفرح به الأولون والآخرون وآية من الحق سبحانه وتعالى ، ويطلب من فضل ربوبية الرازق أن يرزقهم ، ويعترف بامتنان أن الحق هو خير الرازقين .

والمقارنة بين قول الحواريين وقول عيسى تدلنا على الفارق بين إيمان المبلغ عن الله ، وإيمان الذين تلقوا البلاغ عن عيسى . إيمان عيسى هو الإيمان القوى الناضج . أما إيمان الحواريين فهو إيمان ناقص ، لقد كانت قوة إيمان عيسى نابعة من أنه يتلقى عن الله مباشرة ، أما الحواريون فليسوا كذلك ، على الرغم من أنهم آمنوا بالبلاغ